

نظرة في أعماق الإنسان

(الجزء الأول)

للدكتور محمد صبحي أبو غنيمه

قل من العلماء الأدباء في بلادنا العربية من يقدم على التأليف والفسر في الموضوعات العلمية لكساد سوق هذه البضاعة بين القراء ورغبة صواد الناس في مطالعة ما عداها من كتب والاكتفاء في الغالب بقراءة المجلات والصحف التي تمنى بما يروي غليل جمهرة القراء ويسرّي عن أنفسهم ، أما الخوض في البحوث العلمية المحضة فليس لها غير المضطر إما في إبان سني الدراسة وإما في ما يليها من متابعة في بعض الأحيان .

وموضوع تعريفني في هذا الباب يتناول كتاباً ولا كالكتب التي جرت العادة على التعريف بها ، إذ ليس من يقع بين يديه من عامة الناس (ولا أستثني إلا بعض خاصتهم) إلا الاكتفاء بتقليب صفحاته والتحديث في عناوين بحوثه الجذابة متجاوزاً عن الاسترسال في قراءة ما يجوبه من آراء تسحو على مستوى فهمه وإدراكه ، بالرغم عن البساطة البالغة التي صيغت بها لغة الكتاب وما بذله المؤلف من جهد لتذليل العقبات في سبيل حرك موضوعاته ليستضيفها غير الأطباء ، وجعلها في متناول الكثيرين ، إلا بعض الشذرات الأديبة والشعرية التي تخللتها فكانت بمثابة الأفاويه والمشهيات التي تضاف الى الطعام لا من أجل تحسين طعمه فحسب بل لكي تزيد من الشهوة اليه أيضاً . وذلك لأن ما حواه الكتاب قد صهر في بودقة واحدة الطب وعلوم الأحياء والفلسفة صهراً كان نتاجه ما يستغلق فهمه إلا على الراغبين في تلك العلوم .

وطبيعي أن لا يخوض غمار هذا النوع الخاص من التأليف إلا ذو بسطة في

علوم الطب والأحياء والفلسفة والأدب ، وهذا لصر الحق ما تحلى به زميلنا
 الفاضل الدكتور محمد صبحي أبو غنيمه مؤلف (نظرة في أعماق الإنسان) .
 وإني لأكبر عمله هذا أعظم الإكبار لتجسسه الكثير من الصواب في سبيل
 تأليف هذا الكتاب الذي يعد حقاً نسيجاً وحده ، وقد خلت من أمثاله المكتبات
 العربية ونصب معين مصادر ما كان على شاكته من المؤلفات ، بين أبناء لغة
 الضاد . وعلى ذلك رأينا المؤلف الفاضل مضطراً في جمع شتات مباحثه الى أن
 يولي وجهه شطر المؤلفات الأجنبية وقد أرى عددها على المائة والعشرين معظمها
 من الألمانية وبعضها من الانكليزية والفرنسية في جانب التزر اليسير من المراجع
 العربية ، فضلاً عما دعتهم ذاكرته من آراء ومساجلات لأساتيده في جامعة برلين
 إبان دراسته الطب فيها . والى جانب هذا الجهد الأدبي الذي لا يقوّم ،
 فقد بذل الزميل جهداً آخر مادياً ليس بالقليل للإلباس مؤلفه ما يستحقه من حلة
 قشبية بدا فيها بجودة طبعه وكثرة الأشكال والرواسم التي زين بها ناهيك
 بحسن تبويب بحوثه وتنسيقها وعنايته البادية في اللغة العربية وانتقاء الألفاظ
 والمصطلحات فيها .

وعندما طلب إلي أن أعرف بهذا الكتاب خلتني في بادئ الأمر أسنطيع
 أن أفيه حقه من التعريف بأهون سبيل ، بأن أكتفي بتصفحه وسرد ما فيه من
 عناوين ، وما إن حادت ذلك حتى رأيتني ملزماً بقراءة الكتاب لا قراءة
 معرفّ وناقد بل قراءة مستطلع ومستلم ومستزيد من ألفه إلى يائه حينما أجد
 الى ذلك سبيلاً ، مما أدى الى التأخر في التعريف في الوقت المضروب تحت
 المهدرة وأفدت من مطالعة الكتاب فتمت الفائدة .

يقدم المؤلف كتابه بقوله (يحاول أن يستعرض أمامك قصة الإنسان ،
 وقصة الإنسان كانت ولم تنزل ومتظل أعجب وأغرب قصة في هذا الوجود)

ويقتنع بحوث الكتاب بسرد مشاكل الطب في العصر الحاضر ، وإخفاق العلاج في كثير من الأدوية سارداً أقوال أساطين الطب المعاصرين في ما لا يزال إدراك حقيقته من العلال مستغلقاً ، باحثاً بحثاً مستفيضاً في خوارق الطب وأعاجيبه التي يصعب تعليلها تعليلاً عالياً مقنعاً مولياً وجهه شطر أثر العوامل النفسية في الأمراض والشفاء ثم البحث في أسباب الأمراض من داخلية وخارجية ، واضطراب تطور مواد الغذاء الرئيسية (الأحيات وماءات الكربون والأدهان وأشباهاها والمعدنيات) وبلي ذلك البحث في النفس وما قيل عنها في القديم وما يقال في العصر الحالي مع البحث المدقق في آلية ظهور الأمراض والعلل ، والتحقق في جهاز الإثارة أو جهاز الطاقة الحياتية وقبول الإثارة وتطوراتها وأهدافها ثم المنبوزة (النوم المحلوب) منتهياً الى ذكر النكتة وعملها الطبي . ويختتم المؤلف هذا الجزء الأول من هذه التحفة الفريدة بحكمة يقول فيها :
بهذه النظرة أردت أن أوذي قسطاً من واجبي العلمي والإنساني فأنتقل إلى قراء العربية أقوال العلماء المجددين في الطب عما يرونه في أعماق الإنسان من غرائب و « الفكر » التي تحظر لهم فيها كما سجلت ما أوحته هذه الفكر من مفاهيم تصح في رأبي أن نتخذ كقواعد علمية فتعرف بها أسرار تلك الغرائب في أعماق الانسان . أما أقوال العلماء فقد أشرت الى مصادرها بالتفصيل وأما ما أستوحى منها فمعروض للبحث والتحجيص ورحم الله امرءاً أهدي إلي عيوبي . ومن الحق أن أؤكد بأن كل ما جاء في هذه النظرة سيظل جزءاً صغيراً من الكون الذي هو الانسان وبكفني وبكفي القارئ في مثل هذه الحالة أن تمثل بصادق قول حكيمنا العربي :

دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

هذا ولا بد من الاشارة الى لفة الكتاب التي قلت عنها في مطلع هذه الكلمة إنها سهلة وهي صحيحة درج المؤلف في اختيار المصطلحات والألفاظ على ما هو مألوف في كلية الطب من جامعة دمشق ، وجنح في بعضها الى التعريب ولكن عن طريق اللفظ في الألمانية حيث بغلب التعقيد والخروج عما هو شائع في اللغات الأجنبية الأخرى بينما المستحسن في هذا المضمار اختيار اللفظ الأهلون من إحدى اللغات ، كما ان بعض الألفاظ جاءت غير موحدة في بحوث الكتاب فقرأه يستعمل تارة الرئية وأخرى الروماتيزما وروماتيزما عن الة الواحدة مما يوجب الالتباس على القارىء ، وكذلك لفظة انتتاني فجاءت في بعض المواضع (الكزاز) وأخرى التكرز وترجم كلمة (Stress) تارة بجادث نسبي وأخرى بانفعال وقد جاءت هذه الكلمة بـ (Effect) في موضع آخر ، وذكر الأزمة الصدرية (وقد يكون لهذه الكلمة دلالة خاصة في اللغة) عن الحالة المعروفة بالربو ، واستعمل الصرعة عوضاً عن الصرع ، وغير ذلك من الهنات الطفيفة التي لا تؤثر في جوهر الكتاب مع الأمل أن تصحح في طبعة ثانية .

وصفوة القول اني أهني الزميل الكريم على هذه التحفة الفريدة التي أتخف بها المكتبة العربية مع التطلع الى صدور الجزء الثاني لنتم الفائدة .

الدكتور حسني صبح